التفاعل بين سياق الموقف والسياق الثقافي في العربية:
استعمالات التأدب نموذجاً

Heri Kuswanto[1],
[1]Prodi Studi dan Sastra Arab, Universitas Malik Saud
Email : Herikuswanto.ksu@gmail.com
Di terima Tanggal: 10 Januari 2025
Di review Tanggal: 11 Januari 2025
Di publikasikan Tanggal: 12 Januari 2025

مستخلص

يهدف هذا البحث إلى دراسة التحولات اللغوية بين سياق الموقف وسياق الثقافة في اللغة العربية، مع التركيز على استعمالات التأدب بوصفه وسيلة للتفاعل اللغوي. تمثلت الأهداف الأساسية للدراسة في تحديد أنواع السياقات المختلفة وأثر كل منها على التواصل، واستكشاف الدرس التداولي للكشف عن خلفيات الاستعمال اللغوي، ومعرفة القواعد التداولية التي يقوم عليها مبدأ التأدب، خاصة في تحويل التواصل من البعد المرجعي إلى البعد العلاقي. كما تناولت الدراسة الخلفيات الثقافية والتوقعات الاجتماعية ودورهما في تشكيل التفسيرات اللغوية. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي، حيث تم تحليل أنواع السياق وأنماطه في الفصل الأول، مع التركيز على التفاعل بين سياق الموقف وسياق الثقافة. في الفصل الثاني، تم استعراض استراتيجيات التأدب واستخداماتها مع تسليط الضوء على الفرق بين التأدب الإيجابي والسلبي. أما الفصل الثالث فقد خصص لدراسة الأساليب ذات البعد العلاقي، مع التركيز على التحول من البعد المرجعي إلى البعد العلاقي في التواصل. كشفت النتائج عن التفاعل بين السياقات المختلفة وتحولاتها يشكل أساسًا لفهم ديناميكيات الاتصال اليوم. يتطلب نجاح التواصل قدرة المتحدثين على التكيف مع السياقات المختلفة، والتفاعل معها بمرونة، مما يعزز من جودة الرسائل المتبادلة ويضمن تحقيق الأهداف المرجوة من الاتصال.

الكلمات الرئيسية: التفاعل، سياق الموقف، السياق الثقافي، التحولات اللغوية

ABSTRACT

This research aims to study the linguistic shifts between the context of the situation and the context of culture in the Arabic language, with a focus on the uses of politeness as a means of linguistic interaction. The main objectives of the study were to identify the different types of contexts and the impact of each on communication, explore the deliberative study to reveal the backgrounds of language use, and identify the deliberative rules on which politeness is based, especially in shifting communication from the referential dimension to the relational dimension. The study also addressed cultural backgrounds and social expectations and their role in shaping linguistic interpretations. The study adopted a descriptive approach, where context types and patterns were analysed in the first chapter, with a focus on the interaction between situational and cultural context. In the second chapter, politeness strategies and their uses were reviewed, highlighting the difference between positive and negative politeness. The third chapter was devoted to the study of relational styles, with a focus on the shift from the referential to the relational dimension of communication. The findings revealed that the interplay

between different contexts and their shifts forms the basis for understanding the dynamics of communication today. Successful communication requires the ability of speakers to adapt to different contexts and interact with them flexibly, which enhances the quality of the messages exchanged and ensures the achievement of the desired communication goals
Keywords : *Interaction, situational context, cultural context, linguistic Changes*

مقدّمة

يتناول هذا العمل مبحثا من مباحث الدراسات التداولية، وهو جانب التحولات الدلالية موظفا التأدب مجال التطبيق. ويرتبط مفهوم التحولات الدلالية في الثقافة العربية بالسياق. يعد السياق موضوعا من الموضوعات المهمة التي تحظى باهتمام كبير لدى العلماء قديما وحديثا، حيث ينظر إليه بوصفه محورا رئيسيا من محاور الدلالة وثمرة من ثمرات الدرس اللغوي، مثلما أن هدف اللغة الأساسي هو إيصال المعلومات إلى الأطراف المختلفة. وقد عرفت مدرسة لندن بما سمي بالمنهج السياقية **Contextual Approach**، وكان زعيم هذا الاتجاه هو فيرث الذي وضع تأكيدا كبيرا على الوظيفة الاجتماعية للغة.

وتتمثل أهمية الموضوع بارتباطه بمكانة السياق محددا ومؤثرا في خلق أسس التواصل بين الأفراد، ومن ثم إن الكشف عن أسلوب التأدب بما تحتوي عليه النقاط الهامة الكامنة يحمل أثرا كبيرا وفاعلية كبرى في عملية المحادثة بين الأفراد ويساعد مستخدمي اللغة في فهم المقصود مما يريد المتكلم إيصاله إلى المخاطب حتى في الحالات التي يغلب فيها التلميح على التصريح. فهذا الذي دفعني إلى اختيار موضوع البحث.

إنّ قضية السياق من القضايا الرئيسية في الدراسات الدلالية والتداولية واللغوية البينية بصورة عامة، لكونها ذات أهمية كبيرة في الوصول إلى المقاصد؛ سواء كان الأمر يتعلق باللفظ أو الجملة أو النص كاملًا في الكلام، إذ إن معرفة السياق أمر ضروري للتواصل الناجح والتلقي

المناسب. وما لم يحتل السياق وضعه الذي يستحقه، فإن عملية التواصل برمتها تكون مهددة بالفشل.

أورد هادي نهر تحليلًا يبين فيه أنّ "الكلمة خارج السياق تحمل معها كل ما يمكن أن تثيره من دلالات يحتمل أن تؤديها؛ ولهذا لا يمكن الوقوف على المعنى المحدد للكلمة إلا من خلال إنجازها (**performance**) أو أدائها في سياق مقالي ومقامي محددين (نهر, ٢٠٠٧).

بهذا نعلم ضرورة معرفة السياق في الكلمة والإلمام باستخدامه، كما نعلم أيضا أنه (السياق) ينقسم إلى قسمين، **النوع الأول**: السياق المقالي ويسمى أيضًا السياق اللغوي، فكثير من الكلمات يختلف معناها حسب السياق اللغوي الذي تقع فيه. ويحدث أن نفهم كلمة ما، ونحن نقرأ، على نحو ما، ثم نعدل معناها في ضوء السياق اللغوي التالي؛ ولذلك فنحن لا نقرأ دائمًا باتجاه واحد، وكثيرًا ما نعود إلى الخلف لتعديل ما فهمنا في ضوء ما يستجد في أثناء علمية القراءة. وإذا كان لكلمة ما عدة معان غير سياقية، فإن السياق اللغوي هو الذي يحدد المعنى المقصود من بين تلك المعاني (الخولي، ٢٠٠١).

و**النوع الثاني** (الشهري، ٢٠٠٤) : السياق المقامي أو سياق التلفظ أو سياق الحال أو سياق الموقف أو نقول بمصطلح آخر السياق غير اللغوي الذي يُراد به الظروف الخارجية المصاحبة للأداء اللغوي (البركاوي، ١٩٩١).

وجاء عند عبد الفتاح عبد العليم البركاوي -مؤكّدا لِمَا سبقه من الرأي- أن السياق إلى قسمين، بقوله: " ... ويمكن تقسيمه تبعًا لذلك إلى: ١). السياق اللغوي وهو المستفاد من عناصر مقالية داخل النص. ٢). السياق الخارجي وهو المستفاد من العناصر غير اللغوية التي تصاحب النص.

وأكّد كذلك المهدي إبراهيم الغويل على أن السياق مقسم إلى نوعين: "أولهما السياق الداخلي، ويُراد به ما يتعلق بتركيب اللغة وألفاظها، وجمال النص من هذه الناحية يتعلق بطبيعة النسق اللغوي وكيفية تشكله داخل النص وما يضيفه عليه من دلالات فنية. وأمّا ثانيهما السياق الخارجي، فيتمثل في الظواهر شبه اللغوية مثل الملابسة وهي التي تقابل مفهوم الموقف في الدراسات اللغوية الحديثة ويتمثل أيضًا في مزاج الإنسان وعادة أهل اللغة (المهدي، ٢٠١١).

وخلاصة هذه الآراء المقدمة أن السياق تختلف سماته وآثاره حسب انتمائه إلى أحد هذين النوعين؛ فالنوع الأول له بعض التسميات كسياق البنية أو السياق المقالي أو السياق الداخلي أو **السياق اللغوي**. ومهما حمل هذا النوع من تسميات، فإن المعنى الذي جاء منها لا يختلف بين الواحد والآخر، فيراد بالصنف الأول كل ما يتعلق بالعناصر اللغوية بجميع مستوياتها كالمفردة والصرف والنحو والدلالة. وأما النوع الثاني فالسياق المقامي أو سياق التلفظ أو سياق الحال أو سياق الموقف أو **السياق غير اللغوي**، فهذه المصطلحات تأتي بمعنًى، وهو كل ما يحيط الكلام من العناصر الخارجية كالمتكلم والمخاطب والموقف والبيئة اللغوية وكذلك تدخل فيه ثقافة المجتمع في ذلك المكان والزمن.

أما مشكلة البحث فتتمثل في أنه يتناول التحولات الدلالية المنبثقة من تغير المواقف الثقافية، موظفا آليات التأدب واستراتيجياته، ومن هذا المنطلق يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، وهي على النحو الآتي : ١.) تحديد أنواع السياقات وأثر كل منها، ٢.) بحث الدرس التداولي للكشف عن خلفيات الاستعمال اللغوي

أما تساؤلات هذا البحث فيهي كالآتي: ما هي أنواع السياقات وما أثر كل منها في الحوار؟ ما دور التداولية في توضيح العلاقة بين النص وظروف نشأته؟

طريقة البحث

اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي، حيث تم تحليل أنواع السياق وأنماطه في الفصل الأول، مع التركيز على التفاعل بين سياق الموقف وسياق الثقافة. في الفصل الثاني، تم استعراض استراتيجيات التأدب واستخداماتها مع تسليط الضوء على الفرق بين التأدب الإيجابي والسلبي. أما الفصل الثالث فقد خصص لدراسة الأساليب ذات البعد العلاقي، مع التركيز على التحول من البعد المرجعي إلى البعد العلاقي في التواصل.

نتائج البحث

وقد اقترح K. Ammer تقسيمًا للسياق، في هذا الشأن، ذا أربع شعب يشمل (مختار عمر، ٢٠٠٦): ١). السياق اللغوي (Linguistic context)، ٢). السياق العاطفي (Emotional context)، ٣). سياق الموقف (Situational context)، ٤). السياق الثقافي (Cultural context)

وجاء عبد الهادي بن ظافر الشهري (٢٠٠٤م) بأنواع السياق نقلًا عن بريت (Parret) حيث يذكر: "أن تصنيف السياق هو أيسر الطرق لتصنيف التداولات إلى عدة أنواع؛ إذ يقسم السياق إلى أكثر من قسم، ونتج عن ذلك خمسة أنواع من السياق، يطابقها العدد نفسه من التداولات. ومن مميزات هذا التقسيم أنه يغفل الفصل بين ما ينتسب إلى اللغة، وما ينتسب إلى العناصر التي تؤثر في تشكيلها خطابيًا. وهذه الأنواع هي(الشهري، ٢٠٠٤): ١). سياق القرائن (Co-text as context) وهذا ما يُسمى بنحو النص. ٢). السياق الوجودي (Existential context). ٣). السياق المقامي (Situational context). ٤). سياق الفعل (Actional context). ٥). السياق النفسي (Psychological context).

وقد انتقد نجم الدين هذا التقسيم للسياق، بقوله: "إن تقسيم السياق إلى أربعة أقسام فيه مبالغة واضحة وتفتيت متكلّف، وكان ممكنا تقسيمه إلى : ١). السياق المقالي (اللغوي أو اللساني)، ٢). السياق الحالي (المقامي أو الاجتماعي)

وانطلاقا مما تقدم من الآراء السابقة أستنبط أنّ السياق ذو أنماط مختلفة متنوعة، وعمومًا تنضوي هذه الأنماط على هذين النوعين: ١). أنماط السياق اللغوي: سياق القرائن، السياق الصوتي، السياق الصرفي، السياق النحوي، السياق المعجمي، والسياق القصصي. ٢). أنماط السياق غير اللغوي: السياق العاطفي أو الوجداني، السياق الوجودي، السياق النفسي، سياق الفعل، سياق الموقف، سياق الحال، سياق المقام، السياق الثقافي أو الاجتماعي، والسياق التاريخي.

وهذا البحث سيكون موضوعًا تناوله بالإضافة إلى تركيز محور البحث في نمطين من أنماط السياق، وهما: **"سياق الموقف وسياق الثقافة"**.

سياق الموقف

ظل مصطلح "**سياق الموقف**" مصطلحا حديث الظهور في مجال علم اللغة الحديث، لكنه قديم الأصول في علوم العربية، ولما كان هذا المصطلح من حيث التركيب مركّبًا تركيبًا إضافيًّا من كلمتين: (سياق) و(موقف)، فجدير بي في أول خطوات هذا البحث، قبل أن أتبحّر في موضوع "**سياق الموقف**" لهذا الباب أن أستأنف بإيضاح معنيهما من الناحية اللغوية، وأربطهما بمعنيهما من الناحية الاصطلاحية، للتمكن من الحصول على قاعدة انطلاق أكثر صلابة.

إن لكل لفظ اصطلاحي دلالة خاصة به تميزه عن دلالته المعتادة، وعن الألفاظ الاصطلاحية الأخرى الواردة معه في بيئته اللغوية. وبالنسبة للدلالات الاصطلاحية لهذه الكلمة (الموقف)، فإنها في الواقع تتعدد، تبعًا للتخصصات والحقول التي يعرّفها من خلالها صاحبها؛ فقد جاء مصطلح

(الموقف) من المصطلحات الفلسفية في عصرنا الحاضر، حيث يُراد به: "علاقة المرء بمحيطه وبالآخرين في وقت ومكان محددين". فلا يُراد بالموقف "إلا آلية دفاعية متضاربة مع الذات، ومع البيئة الخارجية المنتمية إليها، هذه الذات الصادرة الناشئة للموقف الوليد جرّاء انفعال يترجم بأحاسيس، وردود أفعال تجاه أقوال ما، أنجبت في ذلك التزاوج بينهما والتقاطع المعرفي الإدراكي حالات نفسية، وملابسات ذهنية ترجمت إلى مواقف وسلوكا من لدن كائنات بشرية حية، كالتعبير بالرفض عن موقف خارجي، أو كالتبرير، أو الكبت" (محمد، ٢٠١٦)

انطلاقًا من هذه الآراء أستنبط أنّ الموقف أو المقام هو الخلفية التي لا تتعلق بالعناصر اللغوية في الكلام أو النص، أي مجموع العناصر غير اللغوية التي يكتسب النص أو الكلام من خلالها تمام معناه وتحديد دلالته في الاستعمال. وإذا انطلقنا من الناحية التداولية فإن السياق المقامي متصل بالأحوال المنعكسة على الصياغة اللغوية، فهو بمنزلة السبب الذي يؤثر في النص الملفوظ فيُصاغ بموجبه مؤدّيًا عملًا لغويًّا معيّنًا آخر.

نشأ مصطلح سياق الموقف أو (سياق الحال)، - وهو ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Context of Situation) - في إطار مقاربات المدرسة الاجتماعية الانجليزية في أوائل القرن العشرين، وحينئذ أخذ اللغوي الحديث يدرس اللغة في ضوء الحياة الاجتماعية (لويس، ١٩٥٩)، وتعتمد هذه المدرسة اعتمادا كبيرا على آراء بروني سلاف كاسبر مالينوفسكي (Bronislaw Kasper Malinowski) العالم الأنثروبولوجي البولندي الذي ترك أثرًا كبيرًا في كلتا المدرستين الانجليزيتين الأنثروبولوجي واللغوية. فإذا كانت اللغة من منظور التعريف التقليدي هي وسيلة من وسائل توصيل الأفكار والانفعالات أو التعبير عنها أو نقلها، فالعالم مالينوفسكي لا يراها بمثل هذا؛ بل أبعد من ذلك، يرى " أن اللغة كما يمارسها المتكلمون في أي جماعة من الجماعات إنما هي نوع من السلوك، ضرب من العمل، إنها تؤدي وظائف كثيرة غير التواصل".

كما عرضتُ قبل ذلك؛ إلى أن تقسيم السياق -عموما- نوعان، أولهما السياق اللغوي، والآخر السياق غير اللغوي. فالأول هو كل العناصر الواردة من المعطيات اللغوية في تشكيل الكلام من صوت وصرف ونحو وتركيب ومعجم؛ ولكل منها أثر مهم في نشأة الكلام وتحديد معناه. ولا يؤثر هذا السياق اللغوي فحسب في شكل الكلام، بل أيضًا يعطي المتلقي مؤشرات على مقاصد الكلام.

اصطلح المحدثون في عصرنا الحاضر على تسميته (سياق الموقف)، أو ما أطلق القدامى العرب في التراث العرب عليه مصطلح (المقام). فسياق الموقف أو المقام هو "ما عناه أصحاب النظرية السياقية بالموقف الخارجي، الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة فتتغير دلالتها تبعا لتغيّر الموقف أو المقام، تلك الدلالة التي أسماها أهل الاختصاص بالدلالة المقامية" (الجليل، ٢٠٠١).

وإضافة إلى ما جاء به عن بيان أهمية المقام، جاء كذلك بذكر شروط المقام الثلاثة وهي: ١) شروط المقام التعبيري (يخص المتكلم)، ٢) شروط المقام التأثيري (يخص المخاطب)، ٣) شروط المقام المادي (يخص المحيط التخاطبين بين المتكلم والمتلقي). قد حدّد فيرث أن سياق الموقف يقوم على ثلاثة عناصر، ومنها (عبابنة، ٢٠٠٨): ١). شخصية المتكلم والمتلقي، وتكوينهما الثقافي، وشخصيات أخرى تشهد الحدث الكلامي، وأحداث غير كلامية كالإشارات، وتعبيرات الوجوه، والانفعالات، وغيرها. ٢). العوامل الظاهرة الاجتماعية التي تتصل بالموقف الكلامي كالمكان الذي تجري فيه العملية الكلامية أو الطقس، وحالة الجو، والوضع السياسي، وعلاقة ذلك كله بالسلوك اللغوي وقت الكلام. ٣). أثر النص الكلامي في المشتركين كالإقناع، أو الاعتراض، أو الضحك، أو السخرية.

وجاء محمد علي الخولي مؤكّدًا قول فيرث، بقوله: إن "معنى الجملة لا يتحدد دائمًا بشكل مطلق بمفرداتها ومعناها القواعدي، أي من جانب السياق اللغوي فحسب، بل هناك مؤثرات خارج الجملة قد تؤثر في معناها قليلا أو كثيرا وهذا من ضمن سياق الموقف. من هذه المؤثرات

الخارجية ما يأتي (الخولي، ٢٠٠١): ١). **الحركات الجسدية**. عندما يتكلم المرء قد يحرك يده أو يديه، أو يحرك رأسه، أو أصابعه، أو عينه، أو أيًا من أعضاء جسمه. هذه الحركات الجسمية المصاحبة للكلام قد تؤثر في معنى الجملة بطريقة أخرى. بل في بعض الأحيان قد تناقض هذه الحركات دلالات التركيب الظاهرة. وفي الغالب، تؤكد هذه الحركات معنى محددًا أو قصدًا معينًا للكلام. ٢). **انفعالات الوجه**. إن الوجه يبدي انفعالات متعددة في أثناء الكلام، مثل الندم والسرور والحزن والأسف والشوق والعتاب واللوم والتهديد والغضب والضعف. وكثير من هذه الانفعالات تظهر في العينين اللتين هما مرآة النفس. كما قد تظهر الانفعالات في الشكل الذي تتخذه الشفتان سرورًا أو حزنًا، كما تظهر الانفعالات في شكل، ودرجة توتر عضلات الوجه. ٣). **النغمة العامة**. إذا استمعت إلى صوت شخص يتكلم دون أن تراه، تستطيع من نغمة صوته أن تعرف نوع انفعالاته. فالنغمة في الصوت تكشف الحالة النفسية للمتكلم، هل هو حزين أم مسرور أم غاضب أم متوتر أم آسف أم ماذا؟

١. **أدوار المتخاطبين**. العلاقة بين المتكلم والسامع تؤثر في معاني الجمل المتبادلة بينهما. ومن أمثلة هذه العلاقات الفاعلة ما [|

يأتي: علاقة الأستاذ مع طالبه، والأب مع ابنه، والأم مع بنتها، والزوج مع زوجته، والرئيس مع المرؤوس، والصديق مع صديقه. كما أن اتجاه العلاقة مهم في هذه الحالة.

٢. **العلاقة السابقة للتخاطب**. مما يؤثر في معاني الجمل وردود الفعل عليها العلاقة السابقة للتخاطب. هل العلاقة بن المتخاطبين علاقة ودية أم علاقة متوترة؟ هل هي علاقة مواءمة أم علاقة مواجهة؟ هذه العوامل النفسية تؤثر في فهم كل منهما للآخر.

٣. **البيئة المادية المحيطة**. إن البيئة المادية المحيطة بالمتخاطبين قد تؤثر في التركيب النحوي، حيث إن المتخاطبين قد يكتفيان بالإشارة إلى مكونات البيئة المادية دون التصريح بها في السياق اللغوي.

إنّ اللغة تعكس الثقافة وما فيها من القيم الموجودة المتعلقة بها التي يسلّم جماعة تلك الثقافة بها ويحيطون بها، وصح لمن قال بأن معرفة ثقافة قوم ما جزء مهّم من كيفية معرفة وفهم وإلمام لغة ذلك القوم، كما أنّ دراسة اللغة -أيّة لغة كانت- لا تكتفي فقط لمعرفة أنظمتها المعجمية والنحوية والصرفية، بل يتخطّى ذلك إلى تعرّف وإلمام بأهمّ خصائص ثقافة تلك اللغة. وهكذا، فإن الظروف الاجتماعية والثقافية في مجتمع ما بكل دقائقها وتفاصيلها، تؤثر تأثيرا بالغا في المفردات اللغوية في أثناء وضعها والنطق بها. ويرى مالينوفسكي Malinowski، أنّ المفردات اللغوية في أي مجتمع من المجتمعات تعتبر المرآة الصادقة التي تعكس صورة واضحة لما عليه أفراد هذا المجتمع من ثقافة ونظم وعادات وتقاليد واتجاهات (عطية، ١٩٩٥).

بناءً على هذا، فأرى -على سبيل المثال في اللغة العربية- أنّ الكفاءة الثقافية (Cultural competence) التي تحتوي على المعارف المتعلقة بمعتقدات متكلمي اللغة العربية وقيمهم واحتفالاتهم وطقوسهم اليومية والدينية التي تتبدّى حين تفاعلاتهم التلقائية بينهم، من إحدى الكفاءات التي لابدّ من أن يمتلكها الأجنبيّ إذا همّ أن يتكلّم ويتفهّم مع العرب كالناطق الأصلي كي يصير التواصل بينه وبينهم إلى شكل ناجح وملائم لا يتعارض مع معايير جماعة اللغة، ولا يقع فيما تُعرف بظاهرة سوء الفهم (misunderstanding) التي تقع كثيرا بين العرب والأجانب بسبب فشل الأجنبيّ في اختيار واستعمال العبارة العربية المناسبة. وبهذا أيضا يتّضح الأمر بأنّ معرفة السياق الثقافي وفهمه وإلمامه أمر ضروري للفرد دون إهمال غيرها من السياقات المعروفة الأخرى.

قد استُخدمت لفظة (ثقافة) على نطاق واسع من قبل مختلف الدول والشعوب منذ العصور القديمة، كما استخدم العرب هذه اللفظة في بعض مؤلَّفاتِهم وكتاباتهم في العصور الإسلامية الأولى بنطاقها اللغوي دون التفات إلى نطاقها الاصطلاحي. وقال محمد بن سلّام الجُمحي في مقدمة (طبقات فحول الشعراء) "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان"( ). وأرى أنّ الأقرب لمعنى الثقافة من هذا القول في هذا السياق هو الحذق والفهم فذلك تأكيدًا لما ذكرته المعاجم سابقًا.

وإذا لوحظ استعمال لفظ "ثقافة" فيش الغرب فاختلف معنى الثقافة وتطور تطورا كثيرا منذ عرّفه الناس، فإنّ أول من استعمل اللفظ هم الألمان فقالوا kultur. وفي عصر النهضة الأوروبية كانوا يستعملون اللفظ للفنون والأدب فيقولون; (Cultura Bono rum atrium) ثقافة الفنون الجميلة، وعند "لوك" يستعمل اللفظ في معنى تهذيب العقل أو تهذيب الإنسان (Cultura of the mind or of man)، ومنذ أيام الرومان ارتبط معنى الثقافة بمعنى الإنسانيات، فالثقافة عندهم تطلق على الإنسانيات من أدب ولغة ونحو ومنطق وفلسفة دون العلوم، وفي قرن التاسع عشر أعاد فلاسفة الألمان النظر في معنى لفظ Cultura واستعمالاته واعترضوا على الكثير من المعاني التي تستعمل فيها، مثل استعمال جون لوك لها في معنى "تربية الصغار" في كتابه المسمى; بعض أفكار عن التعليم some thoughts about education. (مؤنس، ١٩٧٨)

إنّ اللغة التي نطق بها الإنسان -برموزها الصوتية- عن جميع أعماله المتعددة في حياته اليومية الديناميكية لن تنفصل عن مرسلها بصوته وحركاته وشكل حياته وثقافته وبيئته في أقصى قرية بات أم في مدينة متطورة عاش، وفي أي مجلس من المجالس نُطقتْ فيه هذه الرموز. فإذا وصلت تلك الرموز إلى أذن المستمع ستكون غير مفهومة حقيقة الفهم لديه إلا بعد أن قام بعملية

التحليل والفهم حسب دلالات هذه الأصوات في عقله التي كوّنَتْها بيئة ثقافية خاصة عن كل ما سبق، محاولة في البحث عن المعاني القريبة المناسبة يقصدها المتكلّم.

وذلك دليل واضح على أن اللغة مرتبطة بمفهوم اجتماعي جمعي في ممارستها واكتسابها، فتنشأ اللغة وتُولد في أحضان المجتمع متى كان أفراده يحسون بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم لأنها تُعتبر المفتاح الذي سيساعدهم على الدخول إلى هذه المجتمعات ومعايشتها.

وجاء حاتم عبيد يبين ارتباط اللغة بالثقافة بما اقتبس من قول كرامش وقال: "ويتخذ ارتباط اللغة بالثقافة في تقدير كرامش وجوها ثلاثة هي التعبير والتجسيد والترميز. فاللغة أوّلا تعبّر عن الواقع الثقافي، والمراد بذلك أن الناس يستعملون ألفاظ اللغة للتعبير عن الوقائع والأفكار تعبيرا يعكس أيضا مواقفهم ومشاعرهم تجاه ما يعبّرونه عنه. واللغة ثانيًا تجسد الواقع الثقافي، إذ هي الأداة التي تمكّن الأفراد من إضفاء المعنى على التجارب التي يحيون. واللغة ثالثًا تحول الواقع الثقافي إلى رموز، ولهذا يرى المتكلمون لغتهم رمزًا لهويتهم الاجتماعية" (عبيد، ٢٠١٥).

ومن هذه كلها، نستطيع أن نقول بأن اللغة وسيط يعمل في ناحيتين، الناحية الأولى هي حاملة للرموز والدلالات والأنساق والإشارات، وهذه كلها أدوات تعبيرية لا غنى عنها للتواصل، ومن ناحية أخرى هي نافذة واسعة على المعرفة البشرية والإنسانية.

بناء على ما ذُكِر عن وجود العلاقة الوطيدة بين اللغة والثقافة، فيمكن الاستنباط أن السياق الثقافي هو عامل هامّ -كغيره من السياقات الأخرى- للإنسان إذا أراد أن يحصل على فهم المحادثة بأقصى الغاية في التواصل مع الآخرين. ولمعرفة أعمق عن ذلك سيُطرح بعض التعاريف عن السياق الثقافي.

السياق الثقافي

يُعدّ السّياق الثقافي نوعًا من أنواع السياق التي تمثِّل الإطار الخارجي للغة، أو ما يُعرف بالسياق غير اللغوي. ويضمّ السياق غير اللغوي سياقات متنوعة، مثل: السياق العاطفي والسياق الثقافي وسياق الموقف، ولكل واحد منها دور يسهم به في تحديد المعنى(محمد داود، ٢٠٠١).

وقال أحمد مختار عمر عن السياق الثقافي هو كل ما يحيط بالمفردة من القيم الثقافية والاجتماعية، مما يضفي عليها دلالة لا يحتملها المعنى المعجمي نفسه، فهو إذًا؛ السياق الذي يحدد الدلالة المقصودة من الكلمة التي تستعمل استعمالًا عامًّا، وهذا كما بيّنه أحمد مختار عمر في كتابه علم الدلالة أن "كلمة (عقيلته) تعدُّ في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميزة بالنسبة لكلمة (زوجته) مثلا"، ويمكن أن نسمى هذا النوع من السياق بـ (المرجعية الثقافية)، وينفرد هذا السياق بوظيفة مستقل عن سياق الموقف الذي يقصد به عادة المقام من خلال المعطيات الاجتماعية، لكنّ هذا لا ينفي دخول السياق الثقافي ضمن معطيات المقام عموما، ويظهر السياق الثقافي في استعمال كلمات معينة في مستوى لغوي محدد (فرحان الطائي، ٢٠١٨).

وبيّن نصر حامد أبو زيد معنى السياق الثقافي تأكيدا لأهميته في فهم النصوص وتوجيه دلالتها بقوله: "ونقصد بالسياق الثقافي للنصوص اللغوية كل ما يمثل مرجعية معرفية لإمكانية التواصل اللغوي وبعبارة أخرى إذا كانت اللغة تمثل مجموعة من القوانين العرفية الاجتماعية بدءًا من المستوى الصوتي وانتهاء بالمستوى الدلالي، فإنّ هذه القوانين تستمد قدرتها على القيام بوظيفتها من الإطار الثقافي الأوسع" (أبو زيد، ١٩٩٥). لذلك لا يكفي المتكلم -وكذلك المتلقي- معرفة قوانين اللغة لضمان نجاح عملية التواصل، فلا بدّ بالإضافة إلى ذلك من أن يكون كلاهما منخرطين في إطار حياتي معيشي يمثل لهما مرجعية التفاهم والتواصل. هذه المرجعية المعرفية هي الثقافة بكل مواضعاتها وأعرافها وتقاليدها.

وقال المهدي إبراهيم عن السياق الاجتماعي: "يشمل كل مكونات المجتمع من عادات وتقاليد.. الخ. وبتعبير آخر هو شامل للعلامة القائمة بين الأفراد والاعتقادات المشتركة والأفكار والأعراف الشائعة بينهم كما أن إطار الثقافة الاجتماعية لكل أمة يفرض نوعًا من العلاقات ما لا يفهمه تماما إلا الناشئون في المجتمع ذاته."

يقول عبد الكريم بن إبراهيم: قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذاق تقابل في كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء، وحد الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تُستعمل كثيرًا في غيره (القيرواني، ١٩٩٥).

وهذا العنصر الاجتماعي ضروري جدًا لفهم المعنى الدلالي، فالذي يقول لفرسه عندما يراها "أهلًا بالجميلة" يختلف المقام معه عن الذي يقول هذه العبارة لزوجته فمقام توجيه هذه العبارة للفرس هو مقام الترويض وربما صحب ذلك ربت على كتفها أو مسح على جبينها. أما بالنسبة للزوجة فالمعنى يختلف بحسب المقام الاجتماعي أيضا فقد قال هذه العبارة في مقام الغزل أو في مقام التوبيخ أو التعبير بالدمامة. فالوقوف هنا عند المعنى المعجمي لكلمتَي "أهلًا" و"الجميلة" وعلى المعنى الوظيفي لهما وللباء الرابطة بينهما لا يصل بنا إلى المعنى الدلالي ولا يكون وصولنا إلى هذا المعنى الدلالي إلا بالكشف عن المقام الذي قيل فيه النص.

ومن منظور علم اللغة إنّ "مدلول اللفظ في لغة ما، يتطور بتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول. وبعبارة أخرى؛ يؤثر التطور الثقافي والحضاري في أمة ما، تأثّرًا بالغًا في مدلولات الألفاظ، حيث يتجه بها وجهة معينة قد تبتعد قليلًا أو كثيرًا عن أوضاعها الأولى تبعًا لمدى درجة التطور الثقافي هذه."

وفي نهاية هذا المبحث، بناءً على ما سبق ذكره تصل الدراسة إلى تعريف السياق الثقافي بأنه: اختيار الكلمة بين عدّة مرادفات واحتمالات مع تحديدها تناسبًا وملائمةً مع السياق المحيط باللغة من حيث المرسِل والمتُلقي والمكان والزمان ودلالات الكلمة تبعا لذلك، حيث إن نظم اللغة يخضع بالجملة للسياق الثقافي وإن لم يكن كذلك فسيخرج عن قصده ويخطئ غايته وحُمِّل ما لا يحتمل في نفس مرسلِهِ

التفاعل بين السياقات

يعد التفاعل عنصرا من العناصر المهمة التي يتضمنها الحوار. ويقوم هذا التفاعل بين المشاركين في العملية التحاورية على الإشراك في الاهتمامات وفهم الأنساق التأويلية والتقويمية. وبناء على هذا، ينبغي الحديث عن كيفية تحقق التفاعل في العملية التواصلية.

فاللغة وسيلة أساسية من وسائل الاتصال الهامة بين المجتمع، يتجلى دورها خاصة في التعبير عن الذات وكذلك فهم الآخرين، وهي أيضًا "أداة وسيلة التواصل، والنشاط التواصلي بدوره هو نوع مستنبط من النشاط الإنساني الذي يجب يتضمن في مجموعة الأنشطة الإنسانية" (هلبش، ١٩٧٠) التي يعبّرُ بها الإنسانُ عَن أفكارِهِ ومشاعرِهِ وحاجاتِهِ وأغراضِهِ، فينبغي عليه - كالمتكلم- إذا أراد إيصال معلوماته وتحقيق مقاصده نحو المخاطب بدون أيّ تشويش أو لبس أَنْ يمتلكَ القدرة اللغويَّة الكافية المناسبة مِنْ أَجلِ تحقيقِ الأغراضِ التواصليَّةِ السليمةِ في السياقاتِ الاجتماعيَّةِ، كما يجب أيضا أن يعتمدَ على مجموعةٍ من المبادئِ التواصلية التي يكتملُ ويتحدَّدُ بها المعنى، وإن أُهْمِلَتْ هذهِ المبادئُ ستصادفه مشكلات في فهمِ دلالةِ الخطاب أو النصوصِ المقصودة.

وبالنسبةِ إلى نظرية التواصل، فتُعدّ نظريته من أهم النظريات اللسانيات الحديثة؛ لأن "كل المفاهيم الأساسية للنظرية النحوية لا يمكن أن تفسّر إلا على أساس نظرية التواصل اللغوي".

بل "إن نظرية التواصل قامت على اعتبار أن اللغة هي شبكة من المفاهيم قائمة على وظائف، فاهتمّت بالخطاب لأنه صلب العملية التواصلية وغياب الخطاب عن الواقع يعني غياب التواصل الاجتماعي بكل متعلقات وملابساته ومن ثم غياب السلوك الإنساني؛ لان السلوك الإنساني مبني على التواصل اللغوي الذي أساسه وعماده هو الخطاب اللغوي" (محمود أمين، ٢٠١٤).

ويستند التواصل حسب رومان جاكوب سون (R. Jacobson) إلى ستة عناصر أساسية، وهي: المُرسِل، والمُرسَل إليه، والرسالة، والقناة، والمرجع (السياق)، واللغة (الجابري، ٢٠١٠). وتفاصيلها كالآتي:

١. المرسل: مصدر الخطاب المقدم إلى المرسل إليه في شكل رسالة، لا غنى عنه ويتمتع عادة بقدرتي الترميز، سواء كان منطوقة أو مكتوبة.
٢. المرسل إليه: الذي يقابل المرسل ويفكك أجزاء الرسالة. وهو بحسب سوسير المتحدث (ب) من خلال تعقيبه أو إضافته أو تساؤله أو رفضه الرسالة وفي هذه الحالة يتحول المرسل مرسلًا إليه والعكس صحيح.
٣. الرسالة: الجانب الملموس في العملية التخاطبين حيث تتجسّد أفكار المرسل في صور سمعية في الخطاب الشفوي، أو علامات خطية في الرسالة المكتوبة.
٤. القناة: هي الممر الفيزيولوجي بين طرفي المرسل والمرسل اليه الذي يسمح بانتقال الرسالة (سواء عبر النطق أو الكتابة).
٥. اللغة: وهو نظام ترميز، مشترك كليًا أو جزئيًا بين المرسل والمتلقي، ينطلق منه المرسل في الترميز ويعود المرسل إليه حين يفكك رموز إحدى الرسائل بحثًا عن القيمة الإخبارية التي شحنت بها.

٦. المرجع (السياق): لكلّ رسالة مرجع تحيل عليه وسياق معين مضبوط قيلت فيه، ولا تُفهم مكوناتها الجزئية أو تفكك رموزها السنية إلاّ بالإحالة على الملابسات التي أنجزت فيها هذه الرسالة.

وسيكون هذا الأخير (النقطة السادسة: المرجع/السياق) موضوع بحثنا في هذا الباب ويودّ الكاتب الكشف عن التفاعل بين السياقات الموجودة على ضوء الدراسة اللسانيات التداولية الحديثة. وأكثر ما تظهر أهمية السياق عندما يلتبس المعنى، "فالسياق هو الذي يزيل الإبهام عن المجمل، ويوضّح تخصيص العام أو تقييد المطلق، وهو الذي يحدّد الدلالة المقصودة عند تنوّع دلالات اللفظ، فإنه من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم" (عباس الباز، ٢٠٢١).

يرى المهدي إبراهيم الغول تقسيم السياق إلى النوعين: أولهما السياق الداخلي وثانيهما السياق الخارجي.

١. السياق اللغوي (الداخلي). فالسياق اللغوي "هو الذي يتألف من الكلمات التي يراد تفسيرها، الكلمات الأخرى التي تتساوق معها على مستوى الجملة أو النص لأداء معنى محدد، لذلك فإنّ حدود السياق اللغوي لا تتجاوز الجملة أو النص ومكوناته" (عبد السلام الرفوع، ٢٠١٥). إذن، للسياق اللغوي دور خاص في تحديد المعنى باعتماد على "دراسة مستويات الكلام اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية فيشرح مفردات الكلام ومدلولاتها إذ ترتبط أجزاء الجملة بعضها ببعض، وتدلّ على مختلف العلاقات اللغوية بينها"(كنوش المصطفى، ٢٠٠٧).

٢. السياق غير اللغوي (الخارجي). يُراد بالسياق غير اللغوي أنه لا يمتلك عنصرًا من عناصر لغوية، مثل (الصوتية، أو صرفية، أو نحوية، أو دلالية) في الجملة، فهو يعرف بقرينة (المقام أو الحال)، المراد بالسياق المقامي هو: كل ما يعين على فهم قصد

المتكلم لدى المتلقي، من خلال الرسالة مستعينًا في ذلك بكل ما لم يرد له ذكر من عناصر منطوقة في سياق الكلام.

ومن عناصر السياق غير اللغوي الهامة هي طرفي المتكلم والمتلقي: حسب الجنس؛ أهو ذكر أم أنثى؟ حسب السنّ؛ صغير السن أم كبير السن؟ حسب العدد؛ واحد أو اثنان أو جماعة أو جمهور؟ حسب الديانة؛ ما دينه وشكله الخارجي؟ حسب منصبه؛ ما مكانته الاجتماعية ... إلى آخر مواصفاته التي تميزه عن غيره. ويشمل أيضًا وجود العلاقة بينهما من حيث القرابة أو الصداقة أو المعرفة السطحية أو عدم المعرفة أو اللامبالاة أو العداوة أو المركز الاجتماعي أو المالي أو السياسي.. وما أشبه ذلك.

ومن عناصره الأخرى، "موضوع الكلام وفي أية مناسبة وأي جوّ يقال، في أي زمان، في أي مكان، وكيف يقال، وما الداعي لقوله وغير ذلك من العناصر الكثيرة جدًّا، التي يؤثر كل منها تأثيرًا مباشرًا على كيفية قول الكلام، وعلى تركيبه، وعلى معانيه، وعلى الغرض من قوله" (رمضان النجار، ١٩٧١).

إذن، يُعدّ السياق الثقافي الأوسع ذا أهمية قصوى في فهم معنى أية رسالة؛ لأن الكلمات لا تملك معاني لها إلا إذا وُردت في إطار ثقافي كلي، ويجب أن يربط أي حديث بجوّ أوسع من العمل أو التفكير الإنساني.

وبالاختصار يمكننا القول إنّ السياق اللغوي (الداخلي) يهتم بالوحدات اللغوية -من أصغرها الصوتية إلى أكبرها الدلالية- للاكتشاف عن المعنى في النص، وأما السياق غير اللغوي (الخارجي) فحين يبحث عن معنى النص يعتمد على جميع ما يصاحبه من العناصر غير اللغوية كالمتكلم والمتلقي والبيئة والمناسبة وما أشبه ذلك. فلهذين الأمرين علاقة وثيقة لا ينفصل بينهما عن الآخر.

ويلعب السياق اللغوي دورًا حاسمًا في فهم معاني الكلمات وتحديد المقصود من الجمل، غير أنه من غير الدقيق افتراض إمكانية استيعاب المعنى الكامل للكلمة أو الجملة في تواصلنا مع الآخرين بالاعتماد فقط على السياق اللغوي دون الرجوع إلى السياقات الخارجية مثل سياق الحال أو السياق الثقافي. هذا الرأي يتناقض بوضوح مع ما يذهب إليه أنصار النظرية السياقية.

فيرى السياقين أن السياق لا يقتصر على معناه التقليدي، وهو النظم اللفظي للكلمة وموقعها منه، أي "الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل والقطعة كلها، والكتاب كله. كما ينبغي أن يشمل- بوجه من الوجوه- كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية (المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة) لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن، وأنه بمراعاة السياق نتخلص من كثير من التفسيرات والاقتباسات المجانبة للصواب" (ألمان، ١٩٨٧).

ويعود البحث عن التفاعل إلى اللسانيين الاجتماعيين من أمثال "فيرث Firth، ومالينوفسكي Malinowski، وهايمز Hymes"حيث انتقد بعضهم اللسانيات التوليدية التحويلية، التي اقتصرت على دراسة اللغة بعيدا عن العناصر الخارجية، ويرى اللسانيون الاجتماعيون أن اللغة تدرس تباعًا لمحيطها الاجتماعي، والتفاعل يَشْمَلُ علاقاتِ الأشخاص والزمن والمكان باللغة، وقد حدد "دايك" قدرات تشكل التفاعل في التواصل اللغوي، وهذه القدرات هي:

١. القدرة اللغوية: وهي القدرة التي تمكن مستعمل اللغة من إنتاج وتأويل العبارة اللغوية المعقدة والمتنوعة تنوّع المقامات التواصلية.

٢. القدرة المعرفية: وتعطي المتكلم القدرة على اشتقاق جملة من المعارف بواسطة قواعد التعليل المحكومة بمبادئ النطق الاحتمالي والاستنباطي.

٣. القدرة الإدراكية: وتفيد أن المتكلم بإمكانه إدراك المحيط واستنباط المعرفة بنفسه عن طريق استثمارها في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها.

٤. القدرة الاجتماعية: هي أن المتكلم إضافة إلى معرفته ماذا يقول، يعرف كذلك كيف يقوله، كما يعرف المقامات التي تمكنه من بلوغ مقاصده التواصلية (بوغابة، ١٩٩١).

ويؤكد هذا التفاعل القول "إن السياق -بنوعيه- يساعدان على فهم النص وتفكيك رموزه؛ فليس بمقدورنا الاستغناء عن السياق اللغوي (الصوتي، الصرفي، التركيبي، الدلالي) ولا عن السياق غير اللغوي، فهما كالعملة الواحدة ذات الوجهين"، لما في ذلك من استمرارية التفاعل بين النص ومتلقيه في ضوء الربط بين التلقي اللغوي والجمالي؛ لأن اللغة تتجاذبها علاقتان: داخلية في تماسكها، وخارجية في التأثر والتأثير الناتجتان من البيئة المحيطة.

ومن أثر تفاعل السياقات نجد أنّ سياق الموقف لا يعمل بمعزل عن السياق الثقافي "فكل من السياقين ضروري في عملية فهم النص فهمًا كاملًا، لما يلعبه كل منهما من دور بارز في تفسير النصوص"، وهكذا بين سياقات أخرى؛ لأن تحليل نص يقتضي معرفة وظائفه واستدراك سياقاته المتنوعة. والمثال على ذلك، عبارة "السلام عليكم" تحية إسلامية، ولكن هذه العبارة قد تتغير من معناها الأصلي إلى معنى في سياق الغضب والمقاطعة عندما يشتدّ النقاش بين شخصين ويقنط من إقناع زميله فينصرف مغاضبا وهو يقول: "السلام عليكم"، فالموقف هنا يحوّل معناها من كونها تحية إسلامية (السياق الثقافي) إلى دلالة المقاطعة والغضب.

ويلزم مستخدم اللغة في الحياة الاجتماعية معرفة ربط ما بين دراسة للغة (السياق اللغوي) ودراسة لعدة أنواع السياقات الأخرى (السياق غير اللغوي)، إذ التفاعل بينهما له أثر بالغ في تفسير معنى من كل لفظ وعبارة داخل السياق الحقيقي الذي ينتسب إليه، وتكون اللغة بهذا المفهوم نمطا من أنماط السلوك البشر لا يؤدي وظيفة ثانوية فقط، بل يؤدي وظيفة خاصة لا يمكن أن

يحل محله شيء آخر. ومثال ذلك، "العبارات التي تجري على ألسنة كثير من الناس: (صلِّ على النّبي) -صلّى الله عليه وسلّم؛ يقولونها لمن يأخذ الغضب منه مأخذه فيكون المعنى المراد هو (اهدأ). ويقولون هذه العبارة أيضًا، لمن يريدون أن يستوقفوه عن الحديث فيكون المعنى هو (كُفَّ عن الكلام). ويستعملونها أيضًا في مخاطبة من يتسرع في القول أو الفعل فيكون المعنى المراد (تمهّل). ويقولونها لمن يستكثر الأشياء أو الخير أو المال أو النعمة عند الناس فيكون المعنى (لا تحسد الناس). ويقولونها لمن يقع في أعراض الناس أو ينال منهم فيكون المعنى (لا تقع في أعراض الناس). ويقولونها لمن يخاطب الناس بشيء من الجفوة فيكون المعنى (تلطف). ويقولونها لمن يستضعف نفسه أو يتردد عن أداء فعل ما، فيكون المعنى (لا تخف ولا تتردد). إلى آخر ما تدل عليه هذه العبارة الطيبة من معان في حياتية مختلفة (شريف استيتية، ٢٠٠٨).

ونجد أن تأويل النص لا يتم إلا بالرجوع للسياقات كما تمت الإشارة إليها؛ لما تؤدي تلك السياقات مجتمعة من دور في تجلية النص، وعلى سبيل المثال قوله تعالى: ((ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)) يحدد السياق المقامي الخارجي معنى كلمة يأكل في الآية، بإحالته إلى ما كان عليه العرب الجاهليون في تحصيل المال عن طريق غير حلال، ومن لم يقم للسياق الاجتماعي وزنًا فلا يتأتى له هذا المعنى السياقي، وظل باحثا عن معنى كلمة "أكل" المعجمي، وهو بدوره لا يعطي المعنى المقصود؛ "تتحدد في السياق الاجتماعي العلاقات بين المشاركين من خلال مفاهيم المقولة التي تتحقق في زمن معين، على نحو ما تحدد إمكانات تأليف الكلمات في جملة المقولات النحوية – التركيبية، التي تخصص لهذه الكلمات. وليس هذا التصنيف نتاج عمل اجتماعي فحسب، بل هو وسيلة المشاركين أنفسهم أيضا حتى يمكن تفسير أحداث اجتماعية وضبطها" (فان دايك، ٢٠١٠).

ويوضح أحمد مختار التفاعل بين السياقات ضاربًا المثال بجملتين: الأولى: فعلية في قولنا "يرحمك الله" حيث استعملت كلمة "يرحم" في مقام تشميت العاطس، مع تقديم الفعل، والثانية:

جملة اسمية في قولنا: "الله يرحمه" في مقام الترحم على الميت؛ فالجملة الأولى طلب الرحمة في الدنيا، والثانية طلب الرحمة في الآخرة. ودل على هذا المعنى سياق الموقف إلى جانب السياق اللغوي المتمثل في التقديم والتأخير، مما يعني أنّ لكل السياقين اللغوي وغير اللغوي دورًا بارزًا في إظهار المعنى بلا شك.

وفيما تقدم يتضح دور السياق اللغوي وغير اللغوي في تحديد المعنى، ولعل من الجدير هنا الإشارة إلى أنّ سياق الموقف يشكل جزءًا من السياق الثقافي؛ فهما يتعاونان في بعض الأحيان في إظهار المعنى، وعلى سبيل المثال فالجملة: "الله يعطيك العافية" التي ترجمتها في الإنكليزية May Allah give you health تختلف دلالاتها حسب السياقات المختلفة؛ فمعناه في المشرق العربي كالسعودية على سبيل المثال دعاء لمن قيلت في حقه، ويرد على قائله بالجملة "والله يعافيك، وشكرا"، أما معناها في المغرب العربي فيعني الدعاء على من قيلت في حقه بالنار، وكذلك في بعض المجتمعات في الدول الأفريقية؛ لا تفيد الجملة معنى إيجابيًّا يُذكر، بالقدر الذي تفيد إساءة في حق من قيلت له.

وفي بعض الحالات لا يتضح المعنى بمجرد السياق اللغوي من دون إقامة الوزن للسياق الثقافي، ومن ذلك ما ذكره فالح العجمي في إطار العلاقة بين اللغة والثقافة حيث يقول: "ومما يعبر عن ثقافة خاصة جدا في شبه الجزيرة الهندية تدوير الرأس عند النطق بما يفيد الموافقة خلافًا لما تعارفت عليه أغلب الثقافات، يكون هذه الحركة مصاحبة للرفض والنفي" (العجمي، ٢٠٠٣)، في مثل هذا الوضع نلمس دورًا مهمًّا للثقافة في إظهار المعنى المراد، بحيث لو نُظر إلى مجرد تدوير الرأس يمنة ويسرة فحسب، حكم –بناء على ذلك- بالرفض، وإنما أُخذ في الاعتبار ما يصاحب الحركة من قول. ويستمر الكاتب في كلامه يحكي قصة في هذا الإطار بما نصه: "وفي رواية لأحد رجال الأعمال البريطانيّين ذكر لي أنه اتّفق مع زميل له على صفقة، وعندما أراد منه تأكيد

الاتفاق قال له: نعم، وأخذ يدور رأسه يمنة ويسرة. فوقع البريطاني في اضطراب؛ لأنه لا يعرف معنى هذه الحركة في الثقافة الهندية، يقول: فقلت له: Is it yes or no?، فأخذ يكرر: yes، ويعيد الحركة. فاستخدام اللغة مؤيد جنبًا إلى جنب مع سياق الثقافة يشيران معا إلى التفاعل بين السياقات المختلفة، ولا فرق في ذلك بين اللغة المنطوقة والمكتوبة أو حركة الجسد (لغة الجسد) كتدوير الرأس كما في القصة السابقة، والذي أصبح مهمّا في رفع اللبس فيما يبدو فيه تناقض بين القول والفعل.

والسياق اللغوي لا يستغني عن السياق غير اللغوي (الخارجي) في فهم النص وإدراك معناه على حقيقته، بل كلاهما يكمّل الآخر؛ لأنّ "النص ليس نسيجا لغويّا يحمل خصائص جمالية فقط، بل إنّ اللغة ممتزجة بفكر صاحبها لا تنفك عنه، كما أنّ النص ليس مرآة عاكسة لشخصية ماثلة وظروفها الخارجية فقط. فهذه الظروف لا تؤلف بدقة معنى النص".

فإن العبارة الواحدة في العربية مثلًا، لها التنوع في معنى المفردة نفسها مستندا إلى توزيعها السياقي، فنفس العبارة تؤدّى معنيين مختلفين في سياقين مختلفين، وهي كما يأتي:

١. قوله تعالى: "اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير".

٢. وقول النبي صلى الله عليه وسلم في من حضر بدرا: "اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة"

إن هذين النصين دليل على وجود التنوع المعنوي للمنحى التوزيعي للمفردات، ذلك بأن الأمر في الآية (اعملوا ما شئتم) يسوق المخاطب إلى معنى التحذير القائم على الوعيد بالعقاب، بيد أن الأمر نفسه (اعملوا ما شئتم) الوارد في الحديث النبوي يشير إلى التلطف والوعد بالمغفرة. فيتجلى من وحدة الصياغة في النصين التنوع المعنوي يعود إلى التوزيع السياقي في استعمال التركيب، فالأول يستدعي معنى الوعيد بالعقاب في الآية، وأما الثاني يأتي بمعنى الوعد بالمغفرة في

الحديث النبوي. ومن هنا نعلم أن معنى المراد ليس مستوى مستقلا من مستويات اللغة: الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والدلالية فحسب، بل أبعد من ذلك أنه ذو علاقة وطيدة مع العناصر غير اللغوية فدلّ ذلك على وجود التفاعل بين السياق اللغوي والسياق غير اللغوي للحصول على معنى الأصلي في النص.

وجدير بالباحث الإشارة إلى كلام تمام حسان عن السياق مبينا أهمية تفاعل السياقات في الجملة حيث يقول: "السياق كالطريق، لابد له من معالم توضّحه. ولا شك أن مباني التقسيم وما تبدو فيه من صيغ صرفية وصور شكلية، وكذلك مباني التصريف مع ما تبدو به من لواصق مختلفة، تقدم قرائن مفيدة جدًا في توضيح منحنيات هذا الطريق، ولكن السياق وحتى مع وضوح الصيغ واللواصق يظل بحاجة إلى الكثير من القرائن الأخرى التي تتضح بها العلاقات العضوية في السياق بين الكلمات".

وعليه، يركز من هذه الرسالة على دراسة أنواع السياق المختلفة وأدوارها المتعددة في عملية الاتصال، مع توضيح التفاعل بين هذه السياقات وتأثيرها على فعالية التواصل. يتم تقسيم السياق إلى أربعة أنماط رئيسية: السياق اللغوي، السياق العاطفي، سياق الموقف، والسياق الثقافي، حيث يسعى الباب إلى توضيح الفرق بين هذه الأنماط وأهميتها الفردية والجماعية في تشكيل معاني الرسائل وتوجيه التواصل بين الأفراد.

خلاصة

في البداية، يتناول السياق اللغوي، الذي يتعلق بتفسير الكلمات والعبارات داخل النص، والذي يلعب دورًا رئيسيًا في تحديد المعاني وفقًا للبنية اللغوية المستخدمة. يليه السياق العاطفي، الذي يتناول الحالة العاطفية للطرفين في التواصل، وكيف تؤثر المشاعر على تفسير وفهم الرسائل.

ثم ينتقل إلى المبحث الأول عن سياق الموقف، الذي يركز على الظروف المحيطة بعملية الاتصال مثل الزمان والمكان والعلاقة بين المتحدثين، مبرزًا كيف أن هذا السياق يحدد بشكل كبير طريقة التفاعل واختيار الأساليب اللغوية المناسبة لضمان تواصل فعال.

يتعمق المبحث في السياق الثقافي، الذي يشمل القيم والتقاليد والمعتقدات التي تميز ثقافة معينة، ويؤثر على كيفية فهم الرسائل وتفسيرها. يوضح الباب الفرق بين سياق الموقف والسياق الثقافي، حيث إن الأول يعتمد على الظروف المؤقتة والمحيطة بالاتصال، بينما يعكس الثاني العوامل الثابتة والمجتمعية التي تشكل خلفية التواصل. يتم التأكيد على أن فهم هذين السياقين بشكل منفصل، وكذلك التفاعل بينهما، هو أمر ضروري لضمان نجاح عملية التواصل.

يناقش المبحث التفاعل بين هذه السياقات وتأثيرها المتبادل على عملية الاتصال. يُبرز أن التحولات بين سياق الموقف وسياق الثقافة تلعب دورًا محوريًا في توجيه الرسائل وفهمها. على سبيل المثال، قد يتطلب تغيير في السياق الموقفي، مثل انتقال التواصل من بيئة رسمية إلى غير رسمية، تعديلًا في أسلوب الاتصال ليناسب السياق الثقافي للطرف الآخر. يشير الباب إلى أهمية تعريف هذه التحولات وفهمها، حيث إن القدرة على التكيف مع هذه التغييرات تساهم في تحقيق تواصل أكثر فعالية وتجنب سوء الفهم.

في الختام، يوضح أن التفاعل بين السياقات المختلفة وتحولاتها يشكل أساسًا لفهم ديناميكيات الاتصال اليوم. يتطلب نجاح التواصل قدرة المتحدثين على التكيف مع السياقات المختلفة، والتفاعل معها بمرونة، مما يعزز من جودة الرسائل المتبادلة ويضمن تحقيق الأهداف المرجوة من الاتصال.

المراجع

نهر, ه. (٢٠٠٧). *علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي* .(p. 652) دار الأمل.

محمد علي الخولي، **علم الدلالة (علم المعنى)**، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، د.ط، ٢٠٠١م،

عبد الهادي بن ظافر الشهري، **استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تدولية**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بتغازي، ليبيا، ط١، ٢٠٠٤م،

عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، **دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق**، دار المنار، القاهرة، ١٩٩١م،

المهدي إبراهيم الغويل، **السياق وأثره في المعنى دراسة أسلوبية**، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا، ط١، ٢٠١١م

أحمد مختار عمر، **علم الدلالة**، عالم الكتب، مصر، القاهرة، ط٥، ١٩٨٨م، ص٦٩ / نجم الدين قادر كريم زنكي، **علم الدلالة دراسة أصولية**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م

حاج هني محمد، **سياق الموقف وتداولية الخطاب بين التنظير والتطبيق التعليمي**، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، جامعة أحمد دراية أدرار، الجزائر، العدد ٩، مارس ٢٠١٦م،

م.م. لويس، ترجمة: تمام حسان، مراجعة: إبراهيم أنيس، **اللغة والمجتمع**، دار الحياة الكتب العربية، د.ط، ١٩٥٩م

منقور عبد الجليل، **علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سورية، ط١، ٢٠٠١م

يحي عبابنة وآمنة الزعبي، **علم اللغة المعاصر مقدمات وتطبيقات**، دار الكتاب الثقافي، إربد، أردن، د.ط، ٢٠٠٨م

نوال محمد عطية، **علم النفس اللغوي**، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٥م

حاتم عبيد، **البعد الثقافي في تعليم العربية لغة ثانية من وجهة نظر لسانية تداولية، مجلة** اللسانيات العربية، العدد ٢، سبتمبر ٢٠١٥م،

محمد محمد داود، **العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب**، القاهرة، ٢٠٠١م

نعمة دهش فرحان الطائي، **امتدادات السياق الاجتماعي على مساحات المعاني مقاربة في ضوء اللسانيات الاجتماعية، مجلة** الأستاذ، العدد الخاص بالمؤتمر العلمي السادس لسنة ٢٠١٨م

نصر حامد أبو زيد، **النص والسلطة والحقيقة،** دار المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م

ابن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٥م

جرهارد هلبش، ترجمة: سعيد حسن بحيري، **تطور علم اللغة منذ ١٩٧٠م**، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٧م

علي محمود أمين ودلدار غفور حمد، **نظرية التواصل وأبعادها في الدرس اللغوي العربي**، مجلة زانكو للعلوم الإنسانية، العراق، المجلد ١٨، العدد ١، ٢٠١٤م،

محمد عابد الجابري، **التواصل والنظريات وتطبيقات**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م،

محمد عباس الباز، **الحذف البلاغي في الرسم القرآن**، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر، ٢٠٢١م،

عاطف طالب عبد السلام الرفوع، **التعاور بين الفعل الماضي، المضارع في ضوء نظرية السياق**، مجلة الدراسات العربية، الرياض، المجلد١٧، العدد٢،

عواطف كنوش المصطفى، **الدلالة السياقية عند اللغويين**، دار السباب للطباعة والنشر، لندن، ط١، ٢٠٠٧م،

ستيفن ألمان، ترجمة كمال محمد بشر، **دور الكلمة في اللغة**، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١٠، ١٩٨٧م،

عبد الإله بوغابة، **الإطار المتكلمي في اللغويات المعاصرة إسهام في استكشاف أصوله المعرفية**، إشراف د. أحمد العلوي، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، رسالة لنيل ديبلوم الدراسات العليا، ١٩٩١م،

سمير شريف استيتية، **اللسانيات؛ المجال والوظيفة والمنهج**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠٠٨م،

فان دايك، **علم النص مدخل متداخل الاختصاصات**، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، القاهرة، الطبعة الأولى، ص ٣٥٦

فالح شبيب العجمي، **اللغة والسحر**، الرياض، مكتبة لسان العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م